# مرآة الوطنية الفلسطينية:
# عبد القادر الحسيني المثقف المختلف

د.فيصل دراج *

"من الناس من يقول إن القوة للحق، ومنهم من يقول إن الحق للقوة. وإذا تأملنا قليلاً رأينا أن الحق يجب أن يكون للقوة. الأقوياء هم الذين يرثون الأرض. حق القوي صريح ثابت. وأما حق الضعيف فهو حق مزعوم باطل يستند إلى عقل ضعيف ومبادئ منحطة وشعور مختل وجسد سقيم".

خليل السكاكيني

عرفت الثقافة الفلسطينية، في مرحلة ما قبل "النكبة"، شكلاً وطنياً ـ حداثياً من المثقفين، انصرف إلى الأدب واللغة والصحافة وانفتح على القضايا الاجتماعية والوطنية، وشكلاً تقليدياً انجذب إلى "الوظائف الحكومية" بحثاً عن الأمان والاستقرار الاجتماعي. ربط الأول بين الثقافة ووظيفتها الوطنية، ممارساً النقد والتحريض، معرّفاً بالصهيونية وغاياتها، وداعياً إلى عمل وطني يجمع بين الوعي والتنظيم. وتطلّع الثاني إلى وظيفة في أجهزة السلطة، تمدّه بالوجاهة الاجتماعية وتتيح له التفرّغ إلى ثقافة الاختصاص. انتسب مثقفو الشكل الثاني، غالباً، إلى أسر ميسورة، أو شبه ميسورة، أمّنت لهم تعليماً عالياً بحثاً عن الوجاهة الاجتماعية وإقامة جسر بين العائلة و"الامتياز الحكومي".

---

* ناقد فلسطيني

التزم الشكل الأول من المثقفين بالدور التحريضي ـ الوطني للكلمة، دون أن يلزم نفسه بـ "الكفاح المسلّح"، أو ما يشبهه، لا عن مساومة أو تقصير، بل عن اقتناع منه بأن الدور الثقافي طليعة للعمل الوطني، وبأن سلاح التربية أكثر فاعلية من أشكال السلاح الأخرى، وهو ما أشار إليه خليل السكاكيني أكثر من مرة. ومع أن العمل الوطني الفلسطيني عرف الشاعر عبد الرحيم محمود، الذي استشهد دفاعاً عن وطنه، فإن صورة المثقف، المقاتل بالكلمة والبندقية، لم تشهد تجسيدها الفعلي، والأكثر كمالاً، إلا في شخص عبد القادر الحسيني، قائد معركة القسطل الذي استشهد في الثامن من نيسان عام ١٩٤٨، بعد أن نفذ سلاحه، واختار التضحية والفداء بديلاً عن الاستسلام والسلامة الفردية. كان عبد القادر، قبل استشهاده، قد التمس العون العسكري من "الجامعة العربية" في دمشق، التي أغدقت عليه النصائح والمواعظ الفارغة، ودفعته دفعاً إلى "معركة ميؤوس منها"، تداخلت فيها البطولة النموذجية والإقبال على الموت.

## ١ . الفلسطيني المتمرد والإعداد الوطني:

المعرفة وتربية وطنية عائلية وروح متمردة : عناصر ثلاثة حكمت مسار عبد القادر وصنعت مآله، مترجمة وحدة الكرامة الفردية والكرامة الوطنية، ومبرهنة أن كرامة الإنسان الحقيقي وحدة لا تقبل التجزيء. كان عبد القادر كياناً متكاملاً، يعطف ذاته على أبيه الوطني، ومعارفه على دورها القتالي، ويعطف رغبات طفولته وصباه على رغبات الرجل القادم الذي أصبحه. فهذا الفلسطيني النجيب، الذي فتنته "الأسلحة" في سن مبكرة أصبح "المسدس"، لاحقاً، امتداداً لجسمه، مع فرق جاءت به التجربة، فمعنى السلاح الفردي، في زمن الصبا، يختلف عن معنى سلاح يريد هزيمة المشروع الصهيوني. جذبته فتنة السلاح، مذ كان صبياً، وأتقن صناعته رجلاً، وأقام مع السلاح صحبة طويلة أنهاها الموت الشريف.

تعلّم في مدارس القدس المتاحة، وذهب إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، وأكمل فيها سنة دراسية واحدة، ثم فصلته الجامعة بعد أن رأت فيه "وطنياً متطرفاً"، لا يتقيّد بالمناهج المقررة ويكثر من الحديث عن الاستعمار. ولم يختلف سلوكه حين غادر بيروت والتحق بالجامعة الأمريكية في القاهرة، في العام الدراسي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠، حيث أكمل دراسته وحصل على شهادة في العلوم: فرع الكيمياء. ففي حفل التخريج "مزّق شهادته أمام الحفل الكبير"، وتوجه بصوت عال إلى رئيس الجامعة قائلاً: "هذه شهادتكم فخذوها، فإني لفي غنى عنها، وأنه ليس مما يشرّفني أن أحملها أو أنتسب إليها، ... أنا لست بحاجة إلى شهادة من معهدكم الاستعماري التبشيري ...". وردت عليه الجامعة بسحب شهادته والإيعاز إلى حكومة الطاغية المصري إسماعيل صدقي بطرده، ورُحِّل إلى فلسطين في تموز ١٩٣٢. كان البطل الفلسطيني، آنذاك، في الثانية والعشرين من عمره.

لم يقتنع عبد القادر بحياد الجامعة الأمريكية، على المستويين السياسي والأيديولوجي، لكنه اقتنع، وهو

الذي يعرف الحدود بين الجهل والمعرفة، أن في الجامعة الاستعمارية "علوماً مفيدة" يحتاجها التحرر الوطني، وأنه لا يمكن اختصارها إلى كلمة "التبشير"، فالجامعة الحديثة تختلف عن الكنيسة ومبادئ علم الكيمياء تختلف عن دروس الصلاة. أعلن في موقفه الشجاع، إلى حدود الفرادة، عن أمور ثلاثة: تسخيف اللقب العلمي كأداة لزينة اجتماعية، تمسكت به عائلات حسيبة تقليدية، كما لو كان اللقب امتداداً لهيبة العائلة أو ضرورة لها. وثانياً إقامة الفارق بين التحصيل العلمي العالي، المطلوب وطنياً، والتماس "وظيفة عالية" في أجهزة السلطة، بما يجعل من اللقب العلمي جسراً بين العائلة والسلطة. فقد أخذ بعض العائلات التقليدية بالقاعدة القائلة: "من يعرف يحكم"، ومن لا يعرف عليه الإذعان، وذلك في إشارة إلى الفلاحين الذين تفشى بينهم القهر والأميّة. يتكشّف الأمر الثالث في التصور التحرري للعالم، الذي يحدّد معنى الإنسان والوطن والعلم، حيث الإنسان قوة مقاتلة، والوطن الحرّ مرجع الوجود الإنساني السوي، والعلم طاقة محرِّرة وأداة في معركة التحرير. بحث عبد القادر عن المعرفة ولم يبحث عن اللقب، مدركاً أن لقب الإنسان يأتي من قيمه، وأن مرجعه ماثل داخله لا خارجه. ولهذا زهد بـ "الشهادة" واحتفظ بعلم "الكيمياء"، واستفاد منه في صناعة الألغام والمتفجرات، التي اعتمد عليها أكثر من مرة في معاركه العسكرية عام ١٩٤٨. ولعل شغف عبد القادر في ترجمة معارفه الأكاديمية إلى مواضيع عملية ـ كفاحية، كما اختلافه عن "المتعلّمين التقليديين"، هو ما جعل الأوساط التقليدية، في السياسة وخارجها، لا تنظر إليه بارتياح كبير. واجه عبد القادر شكلانية الوجهاء، التي ترى في اللقب العلمي ملكية فردية مثمرة ووجهاً آخر من الوجاهة، وأكّد الحاجة الوطنية للمعرفة، التي تنفي المآرب الشخصية، الفردية والجماعية معاً.

ربط عبد القادر بين التحصيل العلمي ووظيفته الوطنية، وبين حياته الشخصية وتحرير فلسطين، فطرد من الجامعة الأمريكية في بيروت، وطردته مرة ثانية من القاهرة، قبل أن يطرد بعد عام ١٩٣٩ من فلسطين إلى خارجها. كان طبيعياً أن يعمل، بعد عودته من القاهرة، في الصحافة متوجهاً إلى الشباب قبل غيرهم، فكتب في جريدة "الجامعة الإسلامية" الصادرة في يافا وأصبح سكرتيراً لها، ليغادرها، بعد أن أدمنت السلطات الإنجليزية على تعطيلها، ذاهباً إلى جريدة "الجامعة العربية" الصادرة في القدس، منتهياً إلى صحيفة مقدسية أخرى: "اللواء"، التي حوربت كما غيرها بالتعطيل المستمر. لم يعمل، كما هو متوقع، في مدرسة، ولم يدرّس "علم الكيمياء" في كلية، ولم يسع إلى وظيفة حكومية مرموقة، تتفق مع "شهادته العالية". عبّر عن حداثته الوطنية بمفردات ثلاث: النقد الذي يفصل بين السلبي الذي يجب التخلّص منه والإيجابي الذي يجب التمسّك به، والصحافة النقدية التي هي جسر بين العقل الثوري وغيره وأداة استنهاض وتعبئة، والشباب ذلك الجمهور الصاعد الذي يتمرّد على العادات. ترجم بالمفردات الثلاث خطاباً سياسياً وطنياً، منتظراً تحويل الخطاب النظري إلى خطاب عملي، قوامه المعركة بالسلاح.

كان إنساناً عادلاً وهب حياته لقضية عادلة، وآمن أن العدل منتصر إن دافع عنه عادلون عارفون متمسكون بالكرامة. دفعه استعداده المستمر للدفاع عن العدل والكرامة إلى أن ينصح والده العجوز، الذي كان يدعى بـ "زعيم البلاد"، بقيادة المظاهرات ضد تحالف الانتداب مع الهجرة اليهودية في أيلول ـ ١٩٣٣ ـ قائلاً : "يا والدي، ...، لقد بلغت من العمر ما يشتهيه الكثيرون، فاختم هذا العمر الطويل الجليل واخرج على القوانين يا والدي. وإن لم يمت مثلك في سبيل وطنه فمن الذي يموت؟". زهد عبد القادر بالملكية الخاصة في مجالي المعرفة والأبوة، مترجماً الموضوعين إلى: مجال القيم، الذي تعلمه من ذاته الحرة المتمرّدة، ومن أب وطني يدعى : موسى كاظم باشا الحسيني، تذكر مقايضة الكرامة الوطنية بالموت بفلسطيني لاحق هو غسان كنفاني، الذي رأى حرية الإنسان في ذهابه الحر إلى موت نبيل.

حرص الاستعمار الانجليزي، في فلسطين كما في غيرها من البلدان المستعمرة، على إلحاق المثقفين بالجهاز الحكومي، وهؤلاء المنتمون منهم إلى العائلات الحسيبة بخاصة. سعى من وراء ذلك إلى تحسين أداء الجهاز الحكومي، وإلى تعطيل الدور الوطني للمثقفين، وفقاً لقاعدة تقايض المعرفة بالمصلحة والعمل الوطني بالوجاهة الاجتماعية. لذا عمل الاستعمار على تأكيد صورة المثقفين المتعاونين، المنحدرين من عائلات شهيرة، مثالاً ثقافياً عالياً، على الجميع أن يحاكيه وأن يقلّده، سيراً إلى حياة مريحة. لذلك عرض المندوب السامي على عبد القادر الحسيني أكثر من وظيفة، إلى أن أقنعه بوظيفة كبيرة في "إدارة تسوية الأراضي"، دون أن يعرف "المندوب" أن لعبد القادر غايات ترتبط بالتزامه الوطني، دفعته إلى قبول "الوظيفة الكبيرة". فقد أراد المسؤول الإنجليزي إبعاد الشاب المتعلم عن السياسة، ومصادرة تمرده بمنافع سلطوية، ووضعه تحت "المراقبة الإدارية". وكان لعبد القادر، المنحدر من عائلة لا تنقصها الوجاهة، أهداف أخرى عنوانها الأكبر: الوقوف على سياسة الاستيطان الصهيوني الذي يسهّله القائمون على شؤون الانتداب، والتعرّف على قضايا الفلاحين ومشاكل حياتهم والحوار معهم وكسب ثقتهم، والنفاذ إلى هواجس الكتلة الأكبر من الشعب الفلسطيني، التي ستلعب دوراً قتالياً رائداً في ثورة ١٩٣٦. وبسبب هذا كله، تدخلت الوكالة اليهودية لدى حكومة الانتداب، ونقل عبد القادر من موقع حيوي إلى عمل هامشي، رد عليه بتقديم استقالته في ١٩ نيسان ١٩٣٦، عام صعود الثورة الوطنية.

كان في مسار عبد القادر ما طرح أكثر من سؤال واضح الإجابة: كيف يعمل مع الإنجليز إنسان طلب من والده العجوز بأن "يخرج على القوانين" وأن يموت في سبيل وطنه؟ وكيف يقبل مثقف وطني ، رفض "الاستعماري والتبشيري"، وظيفة في إدارة تدفع بوطنه إلى الهاوية؟ تحتضن الإجابة عناصر ثلاثة : أولها اختبار الذات الذي يبرهن أن مرجع الإنسان الحر قائم داخله، وأن كيانه ملك لذاته، لا يخضع للعرض والطلب ولا إلى معادلات البيع والشراء، وثانيها انفتاح المعرفة المدرسية على المعارف العملية، فالتعرّف على الفلاحين يعيد بناء صورتهم الذهنية ويتيح التعرّف على "حدسهم الوطني" الذي هو مزيج من الحقيقة والإيمان، وأخيراً مراقبة العدو في عمله العدواني المختلف عن تصريحاته الخارجية

"اللبقة"، التي ترضي الذين يساوون بين الكلمات والوقائع الفعلية. لم يكن موقف عبد القادر من العمل في "إدارة تسوية الأراضي" مختلفاً عن موقفه من "الجامعة الأمريكية". فقد اختبر الأخيرة ومزق شهادتها، واختبر الأول وانصرف عنه ساخطاً. أدرك، في الحالين، أن طريق الإنسان الحر لا يتقاطع مع طرق الذين يَعبثون بإنسانيّته وحقوقه. تجدر الإشارة، في هذا المجال، إلى روحي الخالدي الذي ربط، بدوره، بين المعارف النظرية والمعاينة العملية، حين كان يجمع، في العقد الأول من القرن العشرين، معلومات دقيقة ومباشرة عن "المزارع اليهودية" الشديدة التنظيم، داعياً إلى منظور فلسطيني مسؤول يقوم على المعارف الدقيقة، ولا يكتفي بالشعارات.

تكشف اللغة التي استعملها الشهيد الحسيني عن وضوحه السياسي، وعن إيمانية حاسمة بالدفاع عن الأرض والوطن والهوية. كتب حين استقال من عمله الإداري عند الإنجليز : "لقد عرفت طريق الخلاص والوسيلة الوحيدة التي تتحرر بها البلاد وستسمعون قريباً كيف أحاربكم أنا وقومي يا معشر البريطانيين المسخرين في خدمة اليهود، في الجبال والسهول، وكيف ندافع عن أرض الآباء والأجداد شبراً شبراً...". يتكشّف الوضوح في اعتبار القتال "وسيلة وحيدة" للتعامل مع العدو، بعيداً عن "تشاطر سياسي توهّم "تحييد" البريطانيين وفتش عن سبيل لـ "التفاهم والإقناع"، كما لو كان التشكيّ الأعزل كفيلاً بتغيير "وعد بلفور". وتظهر الإيمانية المقاتلة في تعيين ومعرفة طريق "الخلاص"، وعطف الأراضي على الآباء والأجداد، بما يجعل الدفاع عنها دفاعاً عن الوجود والهوية. أما جملة "ستسمعون قريباً كيف أحاربكم "فشهادة على صدق رجل، يساوي بين الفعل والكلمة، وعلى أخلاقية تنسب المقاتل إلى حلمه، وتنسب الطرفين إلى موروث جدير بالتضحية.

نقد عبد القادر، في لغته الواضحة، زعامات تقليدية تتهم اليهود وتراهن على البريطانيين، ورفض متزعّمين يؤمنون بالبلاغة ويتجاهلون التسلح اليهودي، ولا يردّون عليه بالفعل الشعبي المنظم. لا غرابة أن تتزامن استقالته مع بداية إضراب فلسطين الكبير، حين كان العمل السياسي التقليدي قد كشف عن عجزه وفقد مصداقيته، ولا غرابة أن يلتحق بالفلاحين الذين عرفهم، لا ليعظهم،، بل ليقاسمهم الكفاح العملي، ويأخذ معهم "الوسيلة الوحيدة" التي عنوانها: "البندقية" موحداً بين وضوح البصيرة والإرادة التي لا تساوم. يقول شاهد عيان من ذاك الزمان: "اختار عبد القادر نخبة منا، وكنا نذهب إلى بيته ، فيأخذ في تدريبنا على المتفجرات وكيفية استعمالها." ويقول آخر: "كنت أعمل في البوليس البريطاني قبل هبة ١٩٣٦، ولما علمت أن عبد القادر بيك يريد أن يَكون نواة للثورة في منطقة القدس الشريف، تطوّعت مسرعاً وقمت بتدريب المجاهدين على استخدام السلاح...".

اقتنع عبد القادر بمبدأ النخبة القائدة، التي تؤسس "نواة" متكاثرة، مؤلفة من مقاتلين أحسن اختيارهم، كان منهم ومعهم وموجهاً لهم: فهو معهم قائد ومقاتل، وهو منهم، يعايشهم ويعايشونه، وهو موجّه يعرف ما لا يعرفون، منتقلاً من الكيمياء النظرية إلى الكيمياء التطبيقية. واللافت في هذا الفعل: اختار،

الذي يعيّن الجهاد فعلاً جاداً، يحتاج إلى مواصفات معنوية وخلقية معاً، وكلمة : النواة، التي تعني التأسيس والمبادرة، والمصداقية التي تجعل الفلسطيني المستعد للقتال يتطوّع "سريعاً" ، عارفاً أنه ينضم إلى قائد جدير بالثقة.

لم يشأ عبد القادر أن يكون وجيهاً متعلماً، يضاف إلى وجهاء متعلمين أو غير متعلمين، ولا مثقفاً تقليدياً ينتسب إلى العائلة والوظيفة الرسمية المريحة، ويستأنف المسافة التقليدية بين ابن العائلة الحسيبة والناس البسطاء المنتسبين إلى أنفسهم. إنما أراد أن يؤسس لمثقف "جديد"، يشتق المعرفة من وظيفتها الوطنية، ويحاور الناس ويثقون به، ويثق بدوره الوطني موزعاً الثقة على الذين يقاتلون معه. وما صفة "بيك"، التي أضافها الفلسطيني البسيط إلى قائده، إلا تعبير عن قوة العادة التي تفصل بين القائد والمقاد، التي عمل عبد القادر على كسرها. فقد كان، كما يشهد عارفوه، يُؤْثر البساطة في اللباس والمظهر والطعام والمنام، مؤكداً أنه من الناس ومعهم، مخالفاً آخرين كانوا من الناس ولم يكونوا معهم.

في سيرة عبد القادر ما يستدعي اسم الشاعر: عبد الرحيم محمود، الذي مارس ما قال به في قصيدته ورحل مدافعاً عن وطنه، وفي سيرته ما يضيء، لاحقاً، سيرة غسان كنفاني، وفي هذه السير الثلاثة ما يلقي ضوءاً جديداً على كلمة "المثقف"، التي هي عمومية تحتاج إلى الكثير من التحديد. ذلك أن المثقف ينقسم، كما تنقسم الظواهر جميعاً، بدءاً بكاتب يرى في أسلوبه تجارة، وانتهاء بمثقف رسولي، يعين ذاته مسؤولاً عن قضية شعبه، دون أن ينتظر ريعاً ولا مكافأة، بلغة إدوارد سعيد. لم يكن انقسام عبد القادر الحسيني إلا مرآة لتكامل أخلاقي ومعنوي، يرسم الحدود بين المثقف ـ الموظف والمثقف ـ الرسول، وبين المتزعّم التقليدي والقائد الوطني. استشهد عبد القادر "مديوناً" فقد كان يدفع من ماله الخاص ثمن الأسلحة التي حارب بها.

### ٢. المقاتل الحق في سبيل الحق:

بدت الجامعة العربية، عام ١٩٤٨، جملة أصوات متفرقة متنافسة، تتحدّث بأسماء "دول" لم تحظ باستقلالها، أو حظيت باستقلال ما هو بالاستقلال. لم تكن الجامعة جامعة، بل كيانات مختلفة، ولم تكن قراراتها إلا ترجمة لكيانات تستعصي على التوحيد. وهذه الجامعة هي التي قررت، في عام سقوط فلسطين، إنشاء ما دعي بـ "جيش الإنقاذ"، وأسندت مسؤوليته إلى عسكريين حصلوا على ألقاب كبيرة بحكم الأقدمية، وإلى إداريين يمثلون إرادات سياسية مرجعها خارجي. كان "الجيش المنقذ" صورة عن سياق عربي، ستصفه أيديولوجيات التحرر الوطني لاحقاً بالتبعية والتجزئة، ومرآة لتنافس سلطوي "استهلك" القضية الفلسطينية في أغراض مختلفة.

أعلنت عن أحوال جيش الإنقاذ شهادات ميدانية كثيرة، لا تنقصها النزاهة، كاشفة عن ممارسات جنود، لم يكونوا جنوداً دائماً، وعن تصرفات قادة ألغوا المسافة، أحياناً، بين "الضبّاط" وقطّاع الطرق .

وهناك شهادة بعضهم عن فوزي القاوقجي، الذي كان شاغله الأكبر "تأديب آل الحسيني"، لا محاربة الصهاينة. تمثل دور جيش الإنقاذ، الذي لم ينقذ أحداً، بأمرين: إيهام الفلسطينيين بأن لهم جيشاً عربياً يدافع عنهم، وأن عليهم إخلاء قراهم لتسهيل العمليات القتالية، وإيهام الشعب العربي الغاضب بأن حكوماته تقوم بواجبها "المقدس" إزاء فلسطين. لم تكن هذه الحكومات أكثر من جسم هائل معطّل، يفتقد إلى الإمكانيات والرؤية والقرار المستقل، دون أن يمنع هذا وجود محاربين عرب قاتلوا بشرف واستشهدوا على ارض فلسطين، وعاشوا قضية فلسطين كقضية عربية شاملة.

صدرت مأساة فلسطين، في شقها العربي، عن الفرق بين المقاتل الحقيقي المجسّد في عبد القادر الحسيني والعسكري الرسمي الزائف، وبين وعي المشروع الصهيوني بغاياته وحسبان المسؤول العربي الرسمي الذي استثمر التواطؤ على فلسطين لتلبية حاجاته. ولهذا لا تختصر "النكبة"، في وجه من وجوهها، إلى جملة المسؤول العسكري العراقي الشهيرة: "ماكو أوامر"، التي تعني التخلّي عن فلسطين، إنما تقرأ في أحوال السلطات التي شكّلت "الجامعة العربية"، لتبديد جهود الشعب العربي. وإذا كان لدى هذه السلطات من البلاغة ما تحجب به تواطؤها، فإن وضوح موقف عبد القادر الحسيني فضح التواطؤ، الذي أظهر أن جملة "ماكو أوامر" تنطبق على الموقف العراقي الرسمي وعلى غيره من المواقف العربية الرسمية.

حين وصل عبد القادر إلى وزارة الدفاع السورية، التقى في صباح الرابع من نيسان عام ١٩٤٨، اللواء طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الإنقاذ وقال له : "قد رأيت مخازن اللجنة العسكرية المليئة بالعتاد والأسلحة، فإذا أعطيتم اليوم ما أطلبه من السلاح والعتاد، فإنني قادر على تحقيق أهدافي...". كان عبد القادر يطلب السلاح لتشديد الحصار على اليهود في القدس، بعد أن سدّ عليهم طرق الإمداد، مؤمناً بأنه يستطيع أن يلحق بهم هزيمة تغيّر ميزان القوى، وتفتح أفقاً جديداً لفلسطين. غير أن جواب اللواء العراقي، ممثّل الجامعة العربية، جاء حاسماً: "ولكن هذه الأسلحة تخص جيش الإنقاذ"، ورد عليه المقاتل الفلسطيني: "ولكن أين جيش الإنقاذ، ...، وهل اشترك في أية معركة حتى الآن؟ نحن نريد واحداً بالمائة من الأسلحة التي تقدمونها لهذا الجيش، أولستم قادتنا، وأنتم الذين عهدتم إلينا بتنظيم القوى الشعبية ومقاومة اليهود؟ فلماذا تمنعون عنا كل عون أو مساعدة؟" .

كشف موقف عبد القادر، الذي واجه الخديعة بالحقيقة، عن واقع الجامعة العربية وجيشها "الإنقاذي": كان جيش الإنقاذ "مادة إعلامية" خُلقت على عجل، على صورة "اللجنة العسكرية" المشرفة عليه، التي وعدت بنصر قريب أكيد وراكمت سلاحاً لم تستعمله. يبدو مفهوم "تنظيم القوى الشعبية"، والحال هذه، بعيداً البعد كله عن "الجيش المفترض" وقيادته، ذلك أن "التنظيم الشعبي" متحرر من الحسابات السلطوية التابعة، ولا يكدّس السلاح بل يستعمله، ويحارب حراً من أجل فلسطين، دون أن ينتظر الأوامر المعطّلة بأكثر من قرار. كان دور التنظيم الشعبي المسلح الذي قاده عبد القادر، هو الدفاع عن فلسطين، وكان دور "اللجنة العسكرية" تعطيل كفاح الفلسطيني عن طريق جيش الإنقاذ. لذا صَرَخَ

عبد القادر في وجه اللجنة قائلاً : "إنكم تخونون فلسطين.... إنكم تريدون قتلنا"، فأجابه الهاشمي:" لماذا كل هذا الاهتمام بالقدس يا عبد القادر...؟ إنها لا تستحقه، ولو كانت القدس ميناء على البحر، لاستحقت الاهتمام، وقمنا بمساعدتك"، وتابع المصري اللواء إسماعيل صفوت كلام زميله العراقي: "يا عبد القادر يظهر أنكم تخافون من اليهود، ولذلك فإنكم تقدرون قواتهم أكثر من اللازم، ....، دعهم يحتلون القدس وحيفا ويافا. فإننا سنسترجعها حالاً". لم يكن الطرفان يتابعان ما يجري في فلسطين، كانا مرتاحين إلى لقبيهما وفوائد منصبيهما. لهذا رجع أحدهما إلى العراق سريعاً وشاهد الثاني، بعد شهور قليلة، هزيمة الجيش المصري أمام القوات اليهودية في أكثر من مكان.

سحب عبد القادر قيم المثقف من حيز القراءة والكتابة إلى فضاء القضية الوطنية، محوّلا المعرفة إلى سياسة والسياسة إلى قتال، مستعيداً المأثور الشهير عن النقد والسلاح، حيث نقد السلاح بديل عن سلاح النقد، أو امتداد له. فقد نقض السياسة التقليدية الفلسطينية بممارسته القتالية، ونقض وظيفة السلاح التزيينية في سياسة الجامعة العربية بذهاب صادق إلى المعركة، مجسّداً صورة الفلسطيني المتكامل، الذي نقده من وطنيّته، ووطنيّته من قيمه، ومعرفته العلمية من وطنيته وقيمه معاً. أقام نقضه المزدوج على وقائع عملية، تضمنت المواجهة والبديل النظري ـ العملي، وعهد إلى ذاته وإلى تنظيمه الشعبي تجسيد بديله الوطني "الوحيد"، الذي قطع مع "اللجنة العسكرية في جيش الإنقاذ". قال قبل أن يغادر دمشق: "أما أنا فإني ذاهب إلى القسطل، لأموت هناك، قبل أن أرى ثمرة التقصير والتواطؤ، وسأعود إلى القسطل وسأسترجعها من اليهود مهما كلّف الثمن وسأموت هناك وليسقط دمي على رأس عبد الرحمن عزام وطه الهاشمي وإسماعيل صفوت الذين يريدون تسليمنا لأعدائنا كي يذبحونا ذبح النعاج...".

كان القائمون على شؤون الجامعة العربية يعملون على إنقاذ مصالحهم، وكان عبد القادر يقاتل لإنقاذ فلسطين، وكانوا يرون في الجيوش والأسلحة "عرضاً مسرحياً" ، بلغة المفكر الباكستاني طارق علي ، وكان عبد القادر يتعامل مع المقاتلين والأسلحة بلغة المعركة، التي تعني القتال دون حسبان ذاتي، أو مراهنات خاسرة. تمثّل جملة : "سأموت هناك" فلسفة عبد القادر، التي توحد بين معنى الوطن والاستعداد الشامل للقتال: قتال ضد اليهود، وقتال ضد التخاذل العربي، وقتال ضد الشروط الموضوعية التي تعوّق القتال، ارتبط ذلك بعدد المقاتلين المحدود، أو بقلة العتاد والأسلحة.

في الطريق بين دمشق والقسطل، المكان الذي رجع إليه ودافع عنه واستشهد فيه، كان عبد القادر يردد بصوت هامس حزين أبياتاً من الشعر، يحاور بها ذاته وقدره، ويتوجه بها إلى "بني قومه"، كما يقال، الذين كانوا سلاحاً عليه لا سلاحاً معه. تلك اللحظة المحتشدة بالشعور بالتخلي والاعتصام بالروح ومناجاة أطياف غامضة الصور، سيعيشها، بعد النكبة، فلسطينيون كثيرون، في أكثر من معركة بطولية ويائسة معاً.

يبدو عبد القادر، في هذا التحديد، بطلاً مأساوياً، أو بطلاً تراجيدياً كما يقال، يقوده "قدره" إلى موت

حتمي لا مفرّ منه. لكنه لم يكن كذلك تماماً، فقد كان بإمكانه أن يخرج من القتال كما فعل غيره، وكان من أقداره أن يكون مقاتلاً حاسماً في سبيل الحق في شرط عربي رسمي لا يريد القتال ويخذل الحق والمدافعين عنه. وواقع الأمر أنه كان نموذج الإنسان الحر الذي قتل الخوف في ذاته، لأن قهر الخوف مدخل إلى حرية الإنسان. لا ينفي هذا مساحة المأساوي الهائلة، التي كانت تأتي من عدم التطابق بين الكلمات والمواضيع في استعمالها العربي الرسمي: أن تختصر القدس في طبقات معانيها المتعددة إلى "ميناء" أو إلى بلدة بعيدة عن البحر، كما لو كان بعدها عن البحر يبدّد رمزيتها، ويحوّلها إلى مكان فقير غير جدير بالدفاع عنه، أو كما لو كانت فلسطين، من وجهة نظر قادة جيش الإنقاذ، هي الموانئ الفلسطينية التي تستحق وحدها القتال، وهو تبرير قوامه التخاذل والخيانة والكذب معاً. والطريف هو القول بـ "عروبة المعركة" ورفض إعطاء السلاح للفلسطينيين، كما لو كان السلاح من اختصاص الذين لا يدافعون عن فلسطين. مارست الجامعة العربية فصلاً مأساوياً بين المقاتل الفلسطيني، الذي عليه أن يؤمّن سلاحه وحيداً، و "مقاتلي جيش الإنقاذ"، الذي لهم سلاح غامض الاستعمال والهدف.

مارس عبد القادر قوة الفضح، فلولا مجابهته الإنشاء الكاذب بقول الحقيقة لما ترك لنا الوثيقة الأكثر إيلاماً وكشفاً عن دور النظم العربية، الزائفة الاستقلال، في سقوط فلسطين. ولما عرف الفلسطينيون (أو بعضهم)، مبكراً، أن على الفلسطيني المحاصر بأنظمة تابعة أن يتولى الدفاع عن قضيته، حتى لو بدا الخيار محدود الأفق، في انتظار زمن عربي جديد. ومع أن المثقف الوطني الحديث، الذي درس الكيمياء وعلم المتفجرات، يعرف دور العتاد وفن القتال في قتال العدو، فإن معارفه المتعددة لم تصبح فاعلة إلا بإيمانيّته الحاسمة، التي تضيف إلى المقاتل عزماً لم يتوقعه، طالما أن فاعلية الأفكار والأفعال تصدر عن الإيمان المضاف إليها. ففي الوقت الذي كان فيه عبد القادر يقود معركة القسطل بعدد محدود من المقاتلين يفتقرون إلى السلاح، كان اليهود يملكون أكثر من ستين ألف مقاتل مدرّب، وعدداً من الطائرات، أي كان عدد اليهود المعدّين للقتال يفوق كثيراً عدد "جنود جيش الإنقاذ"، الذين لم يستعدوا للقتال.

أضاءت الإيمانية النبيلة طريق عبد القادر الحسيني في ما قاله، وفي ما فعله، وأخذت بيده إلى معركة لا تقاس بالنصر والهزيمة، بل بالموقف الأخلاقي الصحيح. فالذي ينشغل طويلاً بإمكانيات النصر والهزيمة، لا يذهب إلى المعركة، وقد يخسرها قبل الذهاب إليها. بعد أن قال ممثل الجامعة العربية : "خلاص .... ماكو مدافع... ماكو مال... ماكو سلاح"، رد الفلسطيني المغدور به: "إما أن ننتحر هنا في دمشق، أو أن نذهب إلى العراق ونختفي، أو نعود إلى فلسطين للموت في سبيلها... ولكن ... لا ... سنعود إلى فلسطين...."

في تمام الساعة الثامنة من مساء ٤ نيسان ١٩٤٨ قابل عبد القادر، في فندق "أوريان بالاس" في دمشق، الأمين العام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، وفي الساعة العاشرة قابل "اللجنة العسكرية" وفي مساء الخامس من نيسان عاد إلى القدس ومعه "٥٦ متطوعاً"، ووصل إلى مشارف القدس في صباح

اليوم التالي والتحق بالمجاهدين، وقام بتطويق القسطل مساء السابع من نيسان، واستشهد في الثامن من نيسان عام ١٩٤٨.

تنطوي الفترة القصيرة الفاصلة بين الرحيل عن دمشق والاستشهاد في معركة القسطل على دلالات كثيرة: استأنف عبد القادر معركة، غير قابلة للإلغاء أو التأجيل، كان يقاتل قبل دمشق وقاتل بعد دمشق، وأقام حداً فاصلاً بين قيم الكفاح الشعبي وعروض الجيوش النظامية التي لها قيم مغايرة، وبرهن عن وطنية متسقة، أكملت ما بدأت به ، مؤكداً أن موقع "النواة" ـ أي النخبة ـ في الطليعة، بعيداً عن نخب سابقة ولاحقة، تحترف الأوامر والنصائح والرثاء. وإذا كان في تاريخ الشعوب حديث عن حروب مزهرة، يذهب "الفدائي" فيها إلى المعركة ويعود منتصراً، فقد كان في مسار عبد القادر حديث عن النفوس المزهرة، التي تفصل بين النار والرماد وبين الأبطال الحالمين واللصوص.

كان في عبد القادر إرادة منتصرة، وكان في أقداره ما ينصر الظلم على الإرادة العادلة.

## ٣. الالتزام الوطني وتحوّلات المثقف

يذكر الفلسطينيون صورة عبد القادر الحسيني في زيّه العسكري، التي انتشرت بعد سقوطه شهيداً في معركة القسطل واحتفظوا بها، طويلاً، بعد الرحيل، كما لو كانت جزءاً حميماً من ميراثهم القريب، الذي اشتمل على أطياف شجر الزيتون وأغاني الأفراح وأناشيد الحصاد. إنها بقعة مضيئة من أرض اغتصبت، ووجه من ذاكرة تميّز بين الموت العادي والفداء، وتدرك أن الشهيد يفتدي شعبه ، لتكون له حكايات يفتخر بها.

رأس غطته كوفية بيضاء، تمر على الجبين وترتد وراء إلى جانب الأذن وترتاح على الكتف منسدلة على الظهر، وعقال أسود من طبقتين بينهما فراغ خفيف ينتهي بطرف يلتحق بثنايا الكوفية. يتلو الجبين المغطى كلياً بالكوفية عينان تنظران بثبات إلى الأمام، تريان شيئاً واضحاً وتركزان النظر عليه، بل أنهما تخترقانه ولا تخطئان من أطرافه شيئاً. مع ذلك، فإن في نظرة العينين غموضاً يوزّعها على القريب، الذي يمكن لمسه، وعلى بعيد تلاحقه النظرة ولا تصل إلى مداه الأخير. والوجه مسكون بالرضا الأخير، هناك الأنف والشاربان وشفة سفلى وذقن تميل إلى القصر، ربما، لكن الملامح كلها تبدو امتداداً للعينين اللتين تحتضنان قريباً، كأنه في متناول اليد، وبعيداً لا يمكن القبض عليه. هذه صورة عبد القادر في أرض المعركة.

ما بين الرقبة المغطاة جيداً والكتفين، المغطى الأيسر منها بطرف الكوفية، والخصر الذي لا يرى تماماً، صورة لمقاتل كامل الاستعداد ذاهب إلى المعركة: معطف خشن سميك وجنادان محشوان بالرصاص لا موقع فيهما لرصاصة ناقصة، يتقاطعان في منتصف الصدر، وإن كان الجناد الممتد من الكتف الأيسر إلى

الجانب الأيمن أكثر وضوحاً، ويحجب جزءاً من الجناد الآخر. يبدو الرجل، ذو الياقة السميكة العالية، مزنراً بالرصاص، له قلبه الذي تحدّث عيناه عن هواجسه، وله درعه الخارجي المغطى بالطلقات. يمر جناد الكتف الأيسر بجيب مفتوح يحتوي على أوراق كثيرة دفعت غطاء الجيب الأعلى إلى الوراء، وتركت الجيب شبه مفتوح. ما هي الأفكار التي دوّنها الشهيد في أوراقه الغامضة، وهل تضمنت خططاً متتالية أم أنها كانت رسالة إلى أحبّاء ينتظرون، بقلق، أخباراً مطمئنة؟

إذا كانت العينان قد احتلتا الوجه المستدير كله، ناظرتين إلى القريب البعيد، فإن ما تبقى وضع معناه في يدين متناظرتين، تجاوران خصراً لا يرى شدّه حزام عريض: اليد اليسرى ظهرت منها أصابع أربعة متجاورة، أبعدت الإبهام قليلاً لتقبض على مسدس في قرابه الجلدي، بينما أمسكت ثلاثة أصابع من اليد اليمنى منظاراً عسكرياً، يبدو امتداداً للمسدس والطلقات. يد على مسدس والأخرى على منظار، واليدان معاً استطالة للعينين، وبينهما حزام وأوراق كثيرة ولباس سميك يغطي كمّاه أطراف اليدين.

وعلى الرغم من تفاصيل الصورة المتعددة فهي وحدة متكاملة لا تقبل الانقسام، إنها صاحبها تنوب عن روحه وتعلن أنه تأهب تماماً للذهاب إلى المعركة، أو ذهب جزء منه إليها قبل أن يذهب كله، أو أنه ابتعد عنها قليلاً ليلتمس قدراً من الراحة. وفي الصورة اسى لا بدّ منه، يظهر في جيب منتفخة مكشوفة الأوراق، وفيها رضا الروح التي توحّد بين العدل والشجاعة، وتقول إن قيمة البطل من القضية التي يدافع عنها.

تقرأ صورة الشهيد بعناصرها المكتفية بذاتها والمحدثة بوضوح عن مقاتل يسير إلى المعركة. بيد أن القراءة تصبح أكثر اتساعاً بالرجوع إلى صورتين وردتا في كتاب: "ذكريات من القدس"، للسيدة سيرين الحسيني شهيد. نقرأ تحت الصورة الأولى: الوارد في صفحة ١٩٥، الكلمات التالية: الست وجيهة مع زوجها القائد الشهيد عبد القادر الحسيني بعد زواجهما. نرى شاباً باسماً ارتدّ شعره الطويل إلى الوراء وإلى الأعلى قليلاً، يرتدي قميصاً أبيض وربطة عنق رمادية، ربما، وبزّة (بدلة) حديثة تميل إلى البياض، جلس سعيداً مع سيدة ظاهرة الأناقة على درج مغطى ببساط أنيق، ووراءهما تمثال أو ما يشبه التمثال مغطى بالبياض بدوره. أما الصورة الثانية، الموجودة في الصفحة ١٩٣، فتخص زوجة الشهيد وحدها، وقد ارتفعت عن الأرض وجلست فوق طاولة لامعة السطح ترتدي وتحتذي الأبيض وتحمل بين يديها باقة ورد يتخللها البياض.

لا معنى للصورتين إلا مقارنة بصورة المقاتل السائر إلى المعركة، فهما تخبران عن الفرق بين الناعم والخشن والدرج الأنيق والوديان الشائكة وتخبران، أولاً عن تحولات مثقف ميسور، ذهب إلى القدر الذي اختاره وتصرّف حراً رافضاً ميلاده الاجتماعي، أو تصرّف بميلاده كما يشاء، وخلق ميلاداً جديداً يتقدم المتمسكون بحرفية "الأفكار النظرية"، في الحال هذه، بموقفين يقول الأول: يتعيّن المثقف بانتمائه الطبقي، مفترضين أن على عبد القادر أن يكون وجيهاً سياسياً كغيره من الوجهاء وأن أخلاصه الوطني

العظيم لا يغيّر في شيء "حقيقته الطبقية التي تميل إلى المساومة"، ويقول الثاني: يجتهد المثقف في عبور الطبقات، مفترضين أن المثقف الفلاحي الأصول يتطلع إلى الأعيان، رافضين ما يقول بعكس ذلك، أي رافضين فكرة انتساب مثقف من العائلات الميسورة إلى الفلاحين. والواقع أن عبد القادر كان مثقفاً وإنساناً استثنائياً، فقدْ أخذ مسافة عن بيئته الميسورة الوجيهة، وذهب إلى الفلاحين وغدا ثائراً محترفاً، منتقلاً من ولادة اجتماعية واضحة الملامح إلى "ولادة جديدة" تثير الفضول. لهذا قالت إذاعة لندن بعد انطلاق ثورة ١٩٣٦: "لقد ثبت أن الثورة الفلسطينية تضم عدداً من الشباب المثقفين، الذين يحاربون ضد بريطانيا عن عقيدة ثابتة ووعي وإدراك، من بين هؤلاء عبد القادر الحسيني ـ وهو ابن أكرم عائلات فلسطين، ومن كبار موظفي الحكومة السابقين، وابن الزعيم الراحل موسى كاظم باشا، وقريب سماحة المفتي الأكبر، ...".

يشير تعليق الراديو الإنجليزي إلى مثقفين فلسطينيين ثوريين ويتوقف، مستغرباً من نموذج عبد القادر، موحياً بأن "أبناء العائلات الكبرى" يمارسون القيادة لا القتال، ويعملون في الإدارة أو غيرها ولا يحملون السلاح.

يحمل انتقال عبد القادر من ولادة إلى أخرى على طرح السؤال التالي: ما هي هويته الطبقية ـ الفكرية منذ أن أصبح قائداً في ثورة ١٩٣٦ حتى رحيله في معركة القسطل ١٩٤٨؟ الجواب بسيط: هويته وطنيّته، فلم يستشهد من أجل عائلة أو منصب أو جاه، استشهد من أجل قضيته، وانتمى إلى المقاتلين بالسلاح ، أو انتموا إليه، مجسراً الفروق بينه وبين غيره بعقيدة الكفاح المسلح. ترجم هويته بلباسه العسكري، الذي أشار إلى المعركة الوطنية وقفز فوق الطبقات ، واحتفى به سكان الريف وسكان المدينة، والمتعلمون وغير المتعلّمين.

سؤال ثانٍ: ما الذي تبقى من ملامح المثقف الجامعي في شخصية قائد مقاتل يعايش المقاتلين ويعايشونه؟ ما تبقى هو المعرفة العلمية، التي تقتصد الطاقة الإنسانية، والتي جعلت من المتفجرات سلاحاً أساسياً، تعالج به السكك الحديدية والمخازن والأبنية والمدرّعات، وغيرها من أدوات العدو الإنجليزي - الصهيوني، .... وما تبقى أيضاً هو منظور العالم البعيد عن الارتجال، الذي جعله يعرف أهمية: الاستخبارات، الشبكة اللاسلكية، محطة الإذاعة، تنظيم الدعاية، ... إنه الاجتهاد المنظّم، الذي ينقل فكرة التنظيم إلى الآخرين، ويعلمهم أن قتال عدو حديث الوسائل يحتاج إلى منظور حداثي أيضاً. غير أن المتبقي الحقيقي هو غموض الروح المتمردة، التي تعانق الأرض والسماء.

يرث المثقف ـ الوجيه الوجاهة ويستبقي الثقافة زينة، ويذهب المثقف التقليدي إلى الوظيفة المستقرة ويغلق دفاتره. عرف عبد القادر الوجاهة والوظيفة وانفتح على تجربة مقاتلة تضمّنت المتوقع وغير المتوقع، ونقلته من فلسطين إلى لبنان، وإلى العراق مروراً بسوريا، ومن العراق إلى إيران فإلى مصر مروراً بالسعودية، ... يذكر عنه في هذا الترحال الواسع اشتراكه في ثورة رشيد عالي الكيلاني في ربيع

١٩٤١، وذهابه قبلها إلى ألمانيا لدراسة فن المتفجرات مدة ستة أشهر، وشراء الأسلحة من مصر، ويذكر عنه أنه قطع مسافة ١٠٠٠ كم مشياً على الأقدام حين عاد من إيران إلى العراق وقال في نهاية الطريق : "جحيم بغداد ولا نعيم إيران". أعادته التجربة إلى الكيمياء والرياضيات حين عمل معلماً في مدرسة بغدادية، وتعلّم ممّا وقع إليه من إرهاق وسوء معاملة في إيران ومصر والعراق أن الغربة نقص وأن الغريب محاصر بخيارات الآخرين. لذا قال لاحقاً: أما أنا فسأعود إلى القسطل وأموت هناك.

## ٤. موقع عبد القادر في الوطنية الفلسطينية

أعطى عبد القادر في خياره الوطني تعريفاً موضوعياً لمعنى البطل والبطولة. فقد كان من تلك القلة التي يعترف الجميع بتميّزها، ويختصرون التميّز، طواعية، بكلمة البطل، مؤكدين بأن البطل هو الذي يعترف الآخرون ببطولته. فما يجعل الإنسان بطلاً سيره، حراً، إلى قضية جماعية عادلة، منجزاً عمله وعمل غيره، كما لو كان مسؤولاً عن سلامة القضية، لا عن سلامته الخاصة. ومع أن في مسار البطل ما يحتاج إلى الشجاعة، كأن يواجه عبد القادر آلاف الجنود من اليهود بقلة من جنوده، فإن بين الشجاعة والبطولة فرقاً، ذلك أن الشجاعة لا تستشير العقل دائماً، في حين تحتاج البطولة إلى تدبير عقلاني، يحدّد المعركة وأدواتها وغاياتها، ويعي دلالتها، أكانت منتصرة أو مهزومة.

وقد يقال: ما هو الدرس العقلاني الذي تركه عبد القادر حين أعطى نفسه في معركة "شبه يائسة"؟ والسؤال خاطئ، لأنه مشدود إلى معايير تجارية تقليدية، مثل الربح والخسارة، أو النصر والهزيمة. وما أراده عبد القادر تجسّد في : قوة المثال، حيث البطل يقوده قلبه ويقود جنوده خلال المعركة، ويبقى قائماً في وجدان شعبه، بعد انتهاء المعركة، كي يخبره أنه كان هناك معركة، وأنه لبّى مع جنوده نداء الواجب، دون التوقف أمام موازين الربح والخسارة. ولهذا لا يتعرّف البطل بما أراد، بل بما أراده الواجب أن يقوم به، الأمر الذي يحرّره مما هو ذاتي وشخصي ويضعه داخل المقولات والقيم الموضوعية مثل : الوطن، الحرية، الكرامة، ....

أسهم عبد القادر في بناء الوطنية الفلسطينية من خلال الحكايات التي تركها وراءه، التي تعلّم الإنسان الفلسطيني أن قتاله لم يبدأ اليوم، وأن آخرين قاتلوا قبله، وأنهم قاتلوا اقتناعاً بضرورة القتال، لأن غيرهم منع عنهم السلاح وحاول إقناعهم بالسلامة والفرار من المعركة. "يمكنك أن تذهب إلى بغداد أو أن تبقى في دمشق"، قال "قادة جيش الإنقاذ" للقائد الفلسطيني، الذي قال شيئاً آخر وعاد إلى القسطل. تضمن القول الأول حرية أقرب إلى العبودية، تستبقي عبد القادر رهينة لدى طرف يكره إرادته الحرة، وعبّر القائد عن المسؤولية،لأن حرية لا تعرف معنى المسؤولية حرية مميتة، ولأن قائداً يجهل معنى المسؤولية غير جدير بالقيادة.

لكن إسهام عبد القادر الحقيقي في بناء الوطنية الفلسطينية جاء من اتجاه أكثر جدة ورحابة واتساعاً

عنوانه : الانتساب إلى المجتمع الفلسطيني كله، من فلاحين وموظفين ومتعلّمين ووجهاء، مدللاً أنه ينتمي إلى إرادة وطنية جماعية، أو أنه ينتمي إلى إرادة جماعية يجب وجودها والعمل على تطويرها. فبعيداً عن وجهاء اختلفوا معه، وعن مثقفين دافعوا عن حقوق الفلاحين ولم يقتربوا منهم، كان عبد القادر مثقفاً من خارج الفلاحين وقائداً للمثقفين والفلاحين معاً. وبسبب التزامه بالوطن والأرض والدفاع عنهما، أصبح قائداً للفلاحين، وبطلاً وطنياً في المدن والقرى، مرجعاً وطنياً، قبل سقوط فلسطين وبعدها. نفد إلى فئات المجتمع كلها بفعل الوطني، محتفياً بصفة الفلاح، التي لم تكن مقبولة دائماً في المدن، ومتجاوزاً أكثر صفة "ابن المدينة"، التي كان يلفظها القرويون من دون ترحاب، ومبتعداً، في الحالين، عن تلك القسمة التي أضرّت بالكفاح الوطني: الوجهاء وأبناء القرى، حيث الوجيه يمارس التزعّم والإدارة، وحيث "ابن القرية" تابع للعادات وللوجهاء. إنه القائد الوطني المهيمن، الذي جاءت هيمنته من التزامه بـ"القضية الجماعية"، ومن فعله الوطني الذي أراد محاصرة التقسيمات الاجتماعية الموروثة. أظهرت ممارسته أن ما هو وطني، يتضمن الطبقي وينقده ويتجاوزه، يبدأ من المصلحة الوطنية، لا من مقاصد هذه "الفئة" أو من مشيئة "فئة" معارضة لها. وعن هذا الإجماع صدرت صورة البطل الوطني، التي تظهر واضحة في المعركة، وأكثر وضوحاً قبل الذهاب إليها.

إلى جانب صورة القائد المهيمن، الذي خاض معركته باسم المجموع بشكل يقنع المجموع، عبّر في ربطه بين العلم والحاجة القتالية عن تصوّر حداثي أقرب إلى الفرادة. فقد كان معنى العلم، في مجتمع فلاحي كالمجتمع الفلسطيني، يعني أموراً كثيراً: الذهاب إلى المدرسة والجامعة والتصرّف باللغة العربية وتفسير القرآن ومعرفة تاريخ الأدب العربي، لكنه لم يكن يعني، في الحالات جميعاً، العلم الحديث الذي يتحوّل إلى قوة منتجة على المستوى الاقتصادي، أو إلى سلاح مقاتل على المستوى العسكري. ولهذا بدا عبد القادر مختلفاً وهو يجسّر المسافة بين الفلاحين والعائلات القائدة التقليدية، وبدا مختلفاً أكثر وهو يستخدم علم الكيمياء الذي درسه في الجامعة كسلاح مقاتل في المعركة الوطنية.

أدرك مبكراً أن الدفاع عن فلسطين يتحقق بالسلاح لا بغيره، وأن الكفاح الفاعل يقضي بوحدة المجتمع، وأن العلم الوطني لا يختصر إلى الشعر واللغة العربية. وفي صفاته الثلاث لم يكن قائداً تقليدياً، ولم يكن بإمكان القيادة التقليدية أن ترتاح إليه. ولهذا أوكل إلى ذاته القيام بمهام القيادة كلها، حين كانت قد غادرت فلسطين على أية حال، وأوكل إلى ذاته القيام بما يجب على القائد الحقيقي أن يقوم به، أي عدم الفصل بين القول والفعل، وبين الكفاح السياسي والقتال على الأرض.

الشهيد هو الذي يترك لشعبه حكايات تستنهضه وتسير به إلى الأمام، والشهيد هو الذي يرفض أن تلحق صفة العار بشعبه، والشهيد صوت يأتي من المجموع ويرجع إلى المجموع، رافضاً الفردي والفئوي والمجزوء وكل ما يلحق بالمجموع ضرراً يصعب ترميمه. إنه صوت الجماعة وصوت ذاته المختلفة، فلو كانت الأصوات متساوية لما عرفت المجاميع البشرية قادة، ولما اعترفت أن من بينها إنساناً جديراً

بصفة : البطل.

بدأ عبد القادر الحسيني تلميذاً يحب السلاح وعلم الكيمياء، وانتهى مسؤولاً عن كرامة الوطنيين.

إضاءة عارضة:

## ٥. البطل الشعبي ـ الوطني :

أنتمى عبد القادر إلى شعبه وهو يدافع عن وطنه، وافتدى وطنه وهو يترجم "روح شعب" آمن به. تجاوز في اختياره الحمائل والعائلات والأحزاب، فبدا قائداً للجميع ومن الجميع، رغم "هوامش تقليدية" ضاقت بنوزعه "الشعبوي"، الذي لا يكترث "بالمقامات". غير أن التزامه المعنوي والعملي "بروح الشعب" ألزم الهوامش بالصمت، كان في التعدّي على القائد تعدّياً على روح فلسطين.

جاء في كتاب عالي التوثيق للباحث عيسى خليل محسن عن "المفتي الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني" السطور التالية: "لم يكن هناك رجل في فلسطين ـ حتى أمين الحسيني نفسه ـ يتمتع بالحب والإعجاب من قبل عرب تلك البلاد كالحب الذي كان يتمتع به عبد القادر الحسيني "أبو موسى"، الذي كان رجلاً مثقفاً يفهم بغريزته صفات وطباع أبناء قومه الفلاحين، وكان له مقدرة على استنفار رجاله واستغلال إمكاناتهم إلى أقصى حد، وفوق كل ذلك كان عبد القادر الحسيني يملك روح الزعامة القيادية التي كان تأثيرها على رجاله مثل فعل الكهرباء، لذا لم يطل الوقت حتى كان هناك مئات بل آلاف من القرويين الذين بادروا عند سماع اسمه إلى التقاط بنادقهم، وأخذوا طريقهم للانضواء تحت قيادته والالتفاف حوله وتنفيذ أوامره.... ص : ٣٤٢". وجاء في الكتاب المشار إليه أيضاً:

"لم ترَ القدس جنازة تماثل جنازة الشهيد عبد القادر ضخامة وجلالاً"، مشى الناس في الجنازة احتراماً ووفاء واعترافاً بأن الشهيد يمثل الوطن والشعب، وما يحتاجه الوطن وما يتطلع إليه الشعب مذكراً، في فترة أكثر ضيقاً وصعوبة، بالشيخ عز الدين القسّام، الذي أعطى، بدوره صورة عن القائد الشعبي الوطني، الذي يفيض التزامه على الحسابات التقليدية. لذا بدا رحيل عبد القادر مدخلاً إلى رحيل الفلسطينيين عن أرضهم، وإعلاناً مأساوياً عن رحيل شكل جديد من القيادة الوطنية، قبل الأوان.

لم يعرف المجتمع الفلسطيني، منذ وعد بلفور إلى عام اغتصاب أرضه، قيادة يعترف الشعب بجدارتها وتثق بإمكانياته، بسبب بنية اجتماعية تقليدية، فصلت بين الريف وأهل المدن، أوكلت إلى الفلاحين، غالبية الشعب التي لا تحسن القراءة والكتابة، العمل في الأرض وإطاعة الوجهاء، وتركت إلى العائلات الحسيبة، القريبة من السلطة واليسر والتعلّم، مقاليد العمل السياسي. لذا شكّل الشكل القيادي لعبد القادر الحسيني حالة استثنائية، خارجه عن المألوف.

يقول المؤرخ الراحل محمد عزة دروزة (١٨٨٨ ـ ١٩٨٤) في الجزء الأول من كتابه: "مذكرات

وتسجيلات": "إن أكثر طبقة الوجهاء والأعيان الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو موظفي الدولة....، لا يعدّون من سواد الشعب بل من الطبقات المتفتّحة أو البارزة ذات المناصب". أشار المؤرخ، بلغة متسامحة، إلى "طبقة الأعيان والوجهاء"، التي تتحدث باسم "سواد الشعب"، وتقف فوقه في لحظة، وتقف عليه في لحظة أخرى.

ويورد كريم مروة في كتابه "فلسطين وقضية الحرية" مقابلة مع إحسان عباس قال فيها: "لم تعرف فلسطين حياة سياسية واضحة ومقنعة تغوي الإنسان العادي بالحياة الحزبية. والهبّات الجماهيرية كما ثورة ١٩٣٦ تعود إلى العفوية الوطنية أو إلى الحس الشعبي السليم على مبعدة كاملة من الأحزاب الإسمية التقليدية، ....، أعتقد أنني أتفق مع ما وصل إليه غسان كنفاني في دراسته عن ثورة ١٩٣٦ والتي قال فيها، ما معناه، أن الذين كانوا يقاتلون لم يمارسوا القيادة، مثلما أن قادة العمل السياسي لم يكن لهم، غالباً، دور في القتال.. ص : ٩٧".

تجاوز عبد القادر الانفصال التقليدي بين العمل الذهني والعمل اليدوي وبين القتال والقيادة، ووحّد بين العفوية الوطنية والعمل المنظّم، واستفاد من الحس الشعبي السليم وأفاده: استفاد منه وهو يتعرّف على طبائع الفلاحين ومزاجهم ولغتهم وإمكانياتهم وتصوّرهم للمعركة والوطن، وأفاد الفلاحين وهو ينظّم طاقاتهم، ويقفز عن الفرق بين فئات المجتمع ويلتزم بالقضية الوطنية. وعلى الرغم من الجديد الحاسم، الذي جاء به عبد القادر في حقل القيادة الوطنية، فإن جديده ماثل في اتجاه، فات المؤرخ دروزة: ولد عبد القادر وتربّى في عائلة حسيبة، وخرج منها قاصداً "سواد الشعب".

كان الهنود الحمر يقولون: "حين يموت القائد تحتشد السماء بسحب حمراء". منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم، احتشدت السماء الفلسطينية بألوان مختلفة من الغيوم.

## مراجع الدراسة:


١. عيسى خليل محسن: فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني. دار الجليل للنشر، عمّان ، ١٩٨٦.

٢. عيسى خليل محسن: فلسطين وسماحة المفتي الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني، طبع الكتاب على حساب صندوق آل الحسيني في مطبعة الصخرة، عمّان ، ١٩٩٥.

٣. عيسى الناعوري وإبراهيم القطّان: بطولات عربية، مطبعة الاستقلال العربي ـ عمّان ـ ١٩٥٦.

٤. محمد عزة دروزة: مذكرات وتسجيلات، الجزء الأول، دمشق، ١٩٨٤ (منشورات الجمعية الفلسطينية للآثار).

٥. محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، دار يعرب، دمشق، بلا تاريخ.

٦. عبد الرحمن الكيالي: الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥.

٧. كريم مروة: فلسطين وقضية الحرية، في سير وإبداعات المثقفين الفلسطينيين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣.